

حزيران بلا قتال

إلياس فركوح*

٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧:

فُتق واسع لم يُرتق بعد

.. وماذا لو هبطوا علينا بالمظلات؟

لن يجروؤا، سنصطادهم كالعصافير، سنبيدهم!

لكن الجيش نُقل إلى هناك، وعمّان من يحميها؟

الجيش الشعبي

كانت المرة الأولى التي يسمع بها الفتى الممتلئ حماسة بهذا "الجيش الشعبي"، فتدفق فيه الفضول. أليس هو من الشعب؟ ألم يبلغ سنّ الفتوة؟ سأل والديه، فلم يجيباه. ماذا يستطيعان أن يقولوا والحرب، بالنسبة إليهما، كلمة تخلق دويًا في قلوبهما هو الهلع من دمار وموت مؤكدين، لكنها تُحجم عن الإفادة بوسائل الحماية من شرورها القادمة لا محالة؟! وهل من وسيلة واحدة يعرفانها تحمي القلوب من هلعها؟! الصلاة! غير أن الفتى كان بعيداً، وبعيداً جداً، عن ذلك الخوف الهائل الذي عصر قلبي الوالدين محدثاً فيهما ذاك الانقباض الراجف. كيف يخاف من حرب موعودة ينتظرها الجميع منذ أعوام وأعوام، وبات هو، بدءاً من هذه اللحظة، فرداً متحفزاً داخل كتل هذا "الجميع"؟! وها هي "الموعودة" على مرمى حجر أو أدنى! الحرب قريبة تطرق أبواب البيوت بأحمال ساكنيها من مواد غذائية وشموع (كاحتياط لوقت قد يطول)، وتنقر النوافذ بمناقير طيور غريبة لا تُرى، لكنها ترفرف هائجة في الصدور، وتصخب على مدار الساعة بالخطابات والأناشيد تصعد من حلق الإذاعات ومطربيهها، مألئة هواء الغرف والمقاهي برايات نصر قريب مؤزراً!

إذاً: كان التاريخ يتهاياً لانعطافة كبرى يخبئها في كتابه فوق صفحة لم تُكتب سطورها بعد، بينما لا أحد هناك، داخل البيت، يعرف كيف يتهجّى كلمات الأيام القريبة المقبلة: إن "لغة" التاريخ عصية على من لا يصنعونه! وما كانوا يتخيلون أنهم مجرد "قراء" لأحداثه

* قاصّ وروائي وناشر أردني.

التي عاشوها فعلاً، وعايَنوها معاينة البصر المباشر واللحم الحي. مجرد "قراء" لجزء صميم من حياتهم، وبالتالي من مصائرهم ومآلاتهم، لم يقرروه بأنفسهم، أو باختيارهم - هذا إذا ما سئلوا - ولم يكتبوا كلمة واحدة منه، وكانت تلك القراءة متأخرة ولا حقة!

كان البيت يموج بمشاعر متناقضة. كان يهتز على وقع قلق عظيم من جهة الكبار، وحماسة مندفة مستمدة من تفاؤل الناس وآمالهم بالعودة، ولا يدرك كيف هي الحسابات لدى الفتى، وأسئلة متوجسة من طرف إحدى الأختين - فالكبرى هناك في الجامعة الأميركية في بيروت. غير أن الجميع ضُفروا في جديلة خوف واحد توزع على تساؤلات تحت السقف: هل ستقع الحرب؟ ومتى؟ هل ستصل إلى هنا؟ وماذا عن حفل تخرُّج الأخ الأصغر ميشيل؛ فبعد يومين سيذهب الجميع إلى هناك لحضور ذلك الحفل، وسيارات "سفریات الرشید" لم تنقطع رحلاتها بين العاصمة عمَّان والقدس، وها هو مكتبها في الزقاق أسفل البيت، فليسألوا.

سألوا، وتلقوا الجواب: "الخط" مفتوح في الاتجاهين. عندها، هدأ خوفهم قليلاً، لكنهم ظلوا على نار القلق الغامض: ربما يعلقون جميعاً في شدة الوحش، بعيداً عن مدينتهم!

المسافة بين عمَّان والقدس، مروراً بالأغوار وأريحا، تستغرق ساعة واحدة بالسيارة، أقل أو أكثر ببضع دقائق. غير أن "خط" الدم الذي أريق، والحبل الذي جدل جثث الجنود قبل أن تنفك متفحمة بنار "النابالم" وقاره، والواصل بين المدينتين، لو حدث أن قيس منذ تلك اللحظات في تلك السنة في الأيام الأولى من حزيران/يونيو ١٩٦٧، لكان بلغ حتى الآن، في طوله أعماراً متكاثرة! أعماراً توارث أصحابها كوارث تكفي أجيالاً لأن تطمر تحت أسئلة تتعلق بتاريخها، والإجابات عنها زائفة.. أو ناقصة.. أو مشروطة بقانون المستبد الغالب؛ وها هي لا تزال تسد ثمن ثوب اتسعت فيه الفتوق على أي راتق!

ثوب هو التاريخ،

أو هو التاريخ مكفناً بهذا الثوب؟!

أجل؛ إنها فلسطين، وها موعداً مع تحريرها قد حان!

ذاك كان صوتي، أنا الفتى. الصوت المتردد داخلي، والذي لم أكن مؤهلاً، وقتذاك، على التشكيك في معناه الوثيق، أو التساؤل عن إمكان تحقيقه. كيف للتشكيك أو للتساؤل أن يداخلني، بينما "الامة" تزيج عن كاهلها خلافاتها، وقادتها يلتقون على هدف نبيل بوصلته فلسطين "المغتصبة"، وجيوشها تتأهب للذود.. وربما الانقضاض أيضاً؛ الانقضاض وقد جعلوا المغتصب الصهيوني داخل حلقة متماسكة لن يفلت منها إلا إذا خرج فازاً، من حيث جاء مستعمر، إلى البحر!

ألهذا كان "أحمد سعيد"، المذيع النجم في إذاعة "صوت العرب" من القاهرة، يبشّر الأسماك بـ "وجبات دسمة"؟

الصحف تنشر الصور: الدبابات تعبر الشارع الرئيسي، بمحاذاة البنك العربي، والناس يحتشدون

على الجانبين يُلَوِّحون ويهتفون، والجنود يردون برفع الأيدي. إنها الأيدي نفسها التي كنت أراها مرسومة ومطبوعة، بقبضات مضمومة قوية، تعلو الصفحات الأولى في الجريدتين: "القدس" الصادرة من القدس، و"الدستور" الصادرة من عمان. أذكر هذا جيداً، لأن "يوسف"، بائع الجرائد والمجلات على الرصيف بمحاذاة محلات "عزيزية" في وسط البلد، كان يأتني أكداً بضاعته في آخر النهار خلف باب بيتنا المطل على "مطعم هاشم"، ليعود فيعرضها صباحاً: مجلات "المصور" و"آخر ساعة" و"روز اليوسف" المصرية، على أوراقها صور شتى: خرائط جغرافية حيث يؤشّر إلى مضائق تيران؛ قيادة عسكرية موحدة وغرفة عمليات عربية مشتركة؛ صواريخ القاهر والظافر؛ الجبهة المصرية أُخليت من جنود حفظ السلام الأممية؛ مذبحه "السُمُوع" في الضفة الغربية ما زال صداها يتردد في السرد المسهب كخلفية وسبب من أسباب التصعيد؛ و، و، و...

ولم أنتظر. لحظة أعلنت مراكز التطوع لـ "الجيش الشعبي" بحسب مناطق عمان، تحركت. أخبرت والدي، وانطلقت عارفاً أنه ليس مستسيغاً الفكرة. مشيت إلى هناك، إلى شارع "وادي السير"، حيث "مدرسة الزهراء" للإناث. كانت عطلة المدارس الصيفية، وكنت ملهوفاً أتوقع حشد طوابير من الشباب وقد سبقوني! أغدّ السير وأتساءل إذا ما كانوا سيقبلون بي، وأنا لست ذا خبرة بالسلاح، أو حتى بالإسعافات الأولية! فقط، كنت واثقاً بأن حماستي كافية لأن أتدرب وأتعلم في وقت قياسي، وأن ثمة دوراً يتعين عليّ القيام به. إنها معركة فلسطين وتحريرها، ولن أدعها تفلت من مشاركتي. ربما تكون الأخيرة ولن تتكرر، فأفقد دوري في "بطولة" أرويهها لأولادي ذات يوم!

لاحت المدرسة من بعيد، مرتفعة عن مستوى الشارع، بأعمدتها وشرفتها العالية السقف، وكان الوقت، على ما أذكر، بين التاسعة والعاشر صباحاً. مضيت مستبشراً بأنني سأكون من أوائل من ستسجل أسماؤهم. أسرعت خطاي في شارع شبه خال، والشمس (أذكر هذا كأنه يحدث الآن) تلهب رأسي وتلسع كتفي تحت قميصي الصيفي بكُمّيه القصيرين! أنا قادم من جهة مبنى البريد، ومحلات "عصفوركو"، بينما المدرسة هناك في الشارع الكائن على يمين بداية الصعود إلى جبل عمان. رأيته من بعيد أولاً، أكثر وضوحاً من سواها كونها تقع عند السفح الأيسر.

بلغتها. بلغت المدرسة، عابراً إليها، ولا أحد!

البوابة الحديدية مواربة، وخلفها، متلطياً بمساحة ظلّ، رجل يقتعد كرسيّاً خشبياً من كراسي الصفوف، ويتثاءب! لم يكن من أحد آخر سواه! رفع عينيه إليّ عند اقترابي. رفع عينين أفصحتا عن سخرية ما، فارتبكت! لم أفهم. ولتفادي الحرج الذي أصابني، أجلّت نظري في المكان قبل أن أنبس بكلمة. وراء الرجل مصطبة قليلة الارتفاع، تتوزع من عندها الدرجات الصاعدة نحو الشرفة على اليمين واليسار. وهناك، أيضاً، لا أحد! سوى أوراق منزوعة من دفتر مدرسي، تتطاير بتثاقل وتحطّ على الدرجات! ذاب الوقت، أو أفلتُ الوقت من إحساسي لحظة أن بادرنى الرجل:

"تريد أن تتطوع، يا شب؟"

"نعم"، أجبته.

"قالوا إن المدرسة أصبحت مركزاً للتطوع"، نطق من غير ثقة بحقيقة ما يقول.

فسارعت من فوري: "نعم. لهذا جئت."

هزّ كتفيه في حركة كائن وقع في حيرة، وقال:

"لكن أحداً من المسؤولين لم يأت!، وتابع قائلاً: "تعال في وقت آخر. ربما يأتون."

عدت ظهراً، لا أحد! عدت مساءً، لا أحد! عدت قبل أن تظلم، لا أحد! وهكذا انتهت "تجربتي" مع حكاية التطوع في "الجيش الشعبي". انتهت من دون أن أنسى عيني حارس المدرسة، والسخرية أفصحت لي عن معناها، فيما بعد!

بعد أعوام وأعوام، أدركت، مثلما أدرك سواي، أن الحروب لا تخاض في الإذاعات، وعلى وقع الخطابات الملتهبة، وكلمات الأناشيد الوطنية، وصخب النقاشات المتحمسة في فضاءات المقاهي، والمقالات المرتجلة على أعمدة الجرائد. بعد أعوام وأعوام، أدركنا أن الكذب والتبجح في الحروب يعني خسارتها الأكيدة قبل وقوعها، على العكس تماماً من الكذب والتدليس في السياسة، لأنهما يطيلان أعمار كاذبيها فوق مقاعد حكمهم. بعد أعوام وأعوام، أدركت أن إدراكنا هذا كله يوجب علينا إعادة النظر في الثوب/الكفن الذي ورثناه تاريخاً مفتوقاً إلى حد يستحيل فيه رقعته، وأن ما وقع بعد أيام فقط من النظرة الساخرة في عيني "حارس المدرسة"، إنما هو فتق جديد وواسع هلهل القماش كله. بعد أعوام وأعوام، أدركت أن الشمس التي ألهمت رأسي ولسعت كتفي، وأنا في طريقي إلى كذبة "الجيش الشعبي"، هي نفسها الشمس التي أحرقت الجنود المصريين التائهين في صحراء سيناء، فبث العدو الشامت عبر إذاعته أغنية شادية:

قولوا لعين الشمس ما تحماشي،

أحسن حبيب القلب صاحب ماشي!

إنها السخرية الهادئة في عيني حارس المدرسة، قبل أيام. وإنها الشماتة المُرّة تدوي كالصنج من إذاعة العدو، بعد أيام.

بدأ حزيران/يونيو ١٩٦٧ يطل برأسه، وكان الخميس أول أيامه

رتبنا مع مدير مكتب "سفريات الرشيد"، في الزقاق أسفل بيتنا، أن يخصص لنا سيارة تقلنا جميعاً إلى القدس في اليوم التالي: أبي، وأمي، وأختي الصغرى، وأنا، وميشيل؛ إذ سيقام حفل تخرجه من مدرسته هناك.

الجمعة ٢ حزيران/يونيو: وصلنا إلى القدس. مكتب السفريات خارج السور حيث انتهت رحلتنا، قريباً من مبنى المتحف. سرنا على الأقدام. دخلنا المدينة القديمة من "باب العمود". اجتزنا الشوارع الضيقة بأرضها المرصوفة بأحجار زلقة ما زالت مدببة: الشوارع ذاتها المظلمة ببيوتها المتلاصقة التي اجتزتها عشرات وعشرات المرات، نهاباً وإياباً، حين كنت، إسوة بأخي، طالباً في مدرسة الفريز في "باب الجديد". بلغنا المدرسة وحضرنا الحفل. التقت لنا بضع صور (في واحدة منها بدت متجهماً أقرب إلى العبوس!). مضى اليوم من دون أن يخطر لأي منّا أن هذه الجمعة هي آخر جمعة لنا في القدس!

السبت ٣ حزيران/يونيو: عاد أبي وأمي وأختي إلى عمّان أمس، بينما توجهت إلى بيت لحم لتمضية ليلة عند صديقي سعيد صوالحة، في فندق عائلته الصغير المشرف على ساحة المهدي، وبقي ميشيل في القدس للاحتفال مع زملائه بالتخرج، على أن يعود إلى عمّان في اليوم نفسه.

الأحد ٤ حزيران/يونيو: ربما هو القدر، مجرد أحكام القدر العمياء (أم المبصرة)، عدت إلى عمّان ووصلتها مساءً.
كل شيء هادئ، ولا نذير بأي خطر وشيك تتصادى خفقاته في جنبات المدينة - على الرغم من الضجيج العالي لحرب قادمة كأنها ليست قادمة!
أخي يستعد لأول أيام امتحانات شهادة الـ G.C.A، المعروفة بـ "مترك لندن"، والتي ستجرى في المجلس الثقافي البريطاني في جبل عمّان صباح الغد - وكانت اللغة العربية المادة الأولى.

الاثنين ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧

هل تراني سأكتب عن التناقض المخزي بين البيانات العسكرية العربية، وحقائق ما جرى على أرض المعارك؟ لا، لن أكتب؛ وإنما سأكرر ما بات مشاعاً في ألف وثيقة مقروءة، ومسموعة، ومرئية. لا، لن أكتب، لأن لا حاجة إلى كتابة تاريخ تلك الأيام "الستة" التي بدأت في ذاك اليوم، وما زالت تتوالى وتتضاعف وتتعمق وتتسع طويلاً وعرضاً، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، عبر خمسين عاماً، وها نحن نستعيدها اليوم بوصفنا إياها بأنها كانت "نكسة" - بحسب الشعار الذي رُفِع آنذاك - متستراً على جوهر "الكارثة" التي حدثت، ومخففاً من وقعها، ومُطِلاً من عمر حرب عجيبة في استثنائيتها/ استثنائية في عجائبيتها، حُسمت بـ "الضربة القاضية"، في "الجولة الأولى"، في ست ساعات!

سأستعيد تلك الساعات الغاطسة في أعماق الذاكرة، والتي لم تتجاوز الثماني والأربعين، إلا قليلاً، منذ بدأ ذاك اليوم المشؤوم.

● كانت المرة الأولى التي أعرف أن جيش العدو الصهيوني يُدعى "جيش الدفاع الإسرائيلي"، وها إنني الآن أفهم المقولة المفيدة بـ "خير وسيلة للدفاع هي الهجوم" - فما بالي إذا كان هجوماً مدروساً، جاداً، على جيوش خذلتها قياداتها السياسية، وألقت بها في حرب لم تنتهياً لها حقاً.

● انتصف ذاك النهار، وأُخرج أخي وزملاؤه من قاعة الامتحانات، وصُرفوا إلى بيوتهم، وأُلغيت الدورة، وخسروا عاماً دراسياً من أعمارهم!

● ما إن أدرك أخي أن القدس "ضاعت"، وأنه لن يستطيع العودة إليها، حتى رأيناه ينبطح على بطنه فوق "الديوان"، ليستغرق في نوبة بكاء ونشيج مديدة وعالية النههة! (لم يحقق تلك العودة إلا بعد خمسة وأربعين عاماً، برفقة زوجته البريطانية، وبجواز سفر بريطاني، وبصفته "زائراً").

● أمّا أنا، وبعد أن استوعبت جزءاً من معنى ما حدث، فإن وعيي يومذاك أبى إلا أن يعاند. كان إجراء مكالمات هاتفية خارج عمّان يتطلب الاتصال بمقسم البريد المركزي، وإعطاء العاملين هناك رقم الهاتف المقابل، ثم يوصلون الطالب بالمطلوب!

رفعت السماعة واتصلت بالمقسم، قاصداً الاطمئنان على مَنْ كانت حبيبتي في ذلك العُمُر، وكانت تقيم في القدس.

جاءني صوت فتاة قالت، فور إخبارها بالرقم:

"يا ريت! يا ريت!"

وكأنني سمعت في إثر ذلك، على الطرف الآخر، شَهَقَات مكتومة لبكاء مخنوق!

التفت صوب أبي، كأنني أريده أن يسعفني بكلمة، فرأيت دمعة تفرّ من تحت نظارته! خرجت إلى الشارع، ووجدتني ألتحق بحشد من المسرّنين، يسرون كأنهم يدورون حول أنفسهم!

بعد وقت، كتبت قصة قصيرة كانت الأولى ومتعثرة، سمّيتها: "والرجال يكون أيضاً!" ولم تمض سوى شهور قليلة، حتى قرأت ما كتبه تيسير سبول، في روايته "أنت منذ اليوم":

طاف رجل معظم بلاد العالم ورأى كثيراً من الكوارث إلا إنه لم ير شعباً بأكمله يغرق في الحزن مثل شعبي. وبدا واضحاً أن هذا الشعب قد استحال كائناً واحداً ضحماً ومجروحاً - يترنح ببطء، ولم يكن قط ذهل أبعد من هذا. ■

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(4) قضايا استراتيجية/وجهات نظر إسرائيلية

الرؤية الإسرائيلية للصراعات في الشرق الأوسط

وانعكاساتها على أمن إسرائيل

دراسات لجنرالات وباحثين إسرائيليين كبار

إشراف وتحرير: أحمد خليفة

إعداد: رندة حيدر

١٨٩ صفحة ٦ دولارات